

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين 0

أما بعد 0

مما لا شك فيه إن الأمة المسلمة اليوم، تعيش مرحلة الوهن الحضاري التي أخبر عنها الصادق المصدوق بقوله: (يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها .. قالوا: أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: لا، بل أنتم كثير ولكن غشاً كغشاء السيل، ولنزاعن الله المهابة من قلوب أعدائكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن، قيل: وما الوهن يا رسول الله؟ قال حب الدنيا وكراهية الموت⁽¹⁾).

فمؤشرات الوهن الحضاري ومسبباته، كما في الحديث: حب الدنيا الذي يعني العبّ من متعتها واللهات وراء زينتها، واستهلاك أشتائها، والتزام على الحقوق. ويمكن تلخيص ذلك كله بالانتهاء إلى مرحلة الاستهلاك وظهور الإنسان الاستهلاكي الذي يتجاوز حقه في الأخذ، ولا يحسن بواجبه. أما كراهية الموت الذي هو العنصر الآخر للوهن الحضاري، فيعني: انكماش فكرة الاحتساب، وغياب روح الإيثار والتضحية، وعدم استشعار الواجب، والقعود عن العمل والإنتاج، والاقتصار على الاستهلاك⁽²⁾. وسوف لا يكون أي نهوض أو بناء، إلا بتصويب تلك المعادلة، والخروج من مرحلة حب الدنيا وكراهية الموت، ومعالجة الإصابة بالوهن، بإعادة صياغة الشخصية المسلمة اليوم، والتركيز على إنسان الواجبات، لا إنسان الحقوق .. إنسان البقاء والخلود بالعمل والإنتاج، لا إنسان الزوال والاستمتاع والاستهلاك، إنه المسلم الذي ينأى بنفسه أن يكون مقصودا بقوله تعالى: [أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْأَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ]⁽³⁾.

كما لا بد للأمة - في مرحلة الوهن - من محرضات ومنبهات حضارية، تنبعث من داخلها على يد النخبة من أبنائها الشرعيين الذين أخبر النبي ﷺ عنهم بأنهم الطائفة القائمة على الحق التي لا

(1) سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي ت275هـ، سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، ج2 ص512 رقم (4291).

(2) ينظر: د. محمود محمد سفر، 21 - دراسة في البناء الحضاري (محنة المسلم مع حضارة عصره) مركز البحوث والدراسات بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الدوحة - قطر (سلسلة كتاب الأمة) الكتاب (21) الكتاب محمل عن شبكة الانترنت، ومرقم الكتروني، من مقدمة الأستاذ عمر عبيد حسنة، بتصرف.

(3) التوبة : 38.

العوائق الذاتية في عدم نهوض الحضارة الإسلامية

يضرها من خالفها حتى يأتي أمر الله⁽¹⁾. إنها الطائفة التي تشكل بقية النهوض والتواصل الحضاري، والتي لم يتغلغل الوهن إلى قلوبها، وتعي تماماً ما أصاب أمتها، وتفكر في سبل الخروج من حالة الوهن الحضاري، واثقة بمواثيق الله تعالى لهذه الأمة، ومبشرات المعصوم p، وكلها تؤكد أن قابلية النهوض كامنة ومستمرة، إذا أبصرنا شروطها ومقوماتها، وتحققنا بأسباب التمكين في الأرض. فتسلط الأعداء علينا ليس تسلط استتصال، وإنما هي عقوبات يوقعها الله علينا بسبب معاصينا السياسية والثقافية والفكرية والحضارية، تقوم بدور المنبه الحضاري، لحث الأمة واستفزازها للرد على التحديات.

إن أخطر الإصابات والعوائق الحضارية، هي التي تصيب أنفسنا وأخلاقنا، وبنائنا الداخلي، عبر وسائل الغزو الفكري وقنواته المختلفة. وإن علاج الوهن الحضاري ينبغي أن ينبع من الداخل الإسلامي، ومن المستحيل في ضوء هدي النبوة واستقراء التاريخ وقراءة الواقع، استيراد علاج الوهن من الخارج الإسلامي، فالاستيراد الحضاري، إنما هو معالجة للعرض، وليس لسبب المرض، وما نظنه ونتظاهر به من وهم العافية بسبب الاستيراد، إنما هو إخفاء وتمويه للمرض، وليس علاجاً له.

وبناء على ذلك يمكننا القول أن من عوامل النجاح في الوصول بالأمة إلى دورها الحضاري المنشود استلها ماضيها، وما الاعتماد على الماضي، إلا بقصد توظيفه لخدمة المستقبل. فالأمة المسلمة اليوم، لو استطاعت أن تتمثل شخصيتها الحضارية التاريخية، وتستوعب إنجاز السلف على مختلف الأصعدة، لأدركت رسالتها، واستشعرت مسؤولياتها، وكان حالها على غير ما هي عليه اليوم، لكننا نرى اليوم أن انتسابنا إلى الماضي، دعوى بلا دليل، فقد أصبح الافتخار بإنجاز الأجداد، نوع من السلبية والهروب من الواقع، حيث أصبح الكثير من أبناء الأمة تستهويهم قصص الماضين، لشغل أوقات الفراغ، لا للاعتبار بفعلهم، والنسج على منوالهم، فلو أدركت الأمة ماضيها، واستوعبته، لصنعت الحاضر، واستشرفت آفاق المستقبل.

والحضارة إنما تنهض وتزدهر في ظل الإيمان، والاطمئنان بذكر الله ودعائه، وانسراح الصلوات وتحقيق السبل والأمن، إن تفاؤلنا بقدرة هذه الأمة على النهوض والبناء الحضاري، وتجاوز المأزق الحضاري الذي نعيشه اليوم، لا يمثل بالنسبة لنا خياراً، بقدر ما هو دين وعقيدة، مستمدة من مواثيق الله، ومبشرات الرسول p، واستقراء التاريخ الحضاري لهذه الأمة، واستعصائها على التذويب والتمويت والإبادة، لأنها تمتلك مقومات البقاء والنهوض، لكن ذلك لم يمنع من وقوعها في

(1) يقول النبي p (لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله ما يضرهم من كذبهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك) - محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، الجامع الصحيح المختصر، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا أستاذ الحديث وعلم أصول الفقه في كلية الشريعة - جامعة دمشق، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، الطبعة الثالثة، 1407 - 1987، ج6 ص2714 رقم (7022) واللفظ له. مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ج3 ص1523 رقم (1920).

العوائق الذاتية في عدم نهوض الحضارة الإسلامية

الوهن الحضاري، الذي نلمح مظاهره اليوم على أكثر من صعيد. يقول الأستاذ عمر عبيد حسنة⁽¹⁾: " لقد ذهب علماء الحضارات، كثمرة لاستقراءهم التاريخ البشري، وصفحات السقوط والنهوض، إلى أن الحضارة، تمر بمراحل ثلاث، فقالوا:

إن المرحلة الأولى: هي مرحلة الفكرة، مرحلة الإيمان بالهدف، الذي يملأ على الإنسان نفسه، ويشكل له هاجساً دائماً وقلقاً سوياً، ويدفعه للعطاء غير المتناهي، و التضحية في سبيل ذلك، بكل شيء، بما يمكن أن يعتبر أن من أهم سمات هذه المرحلة: بروز إنسان الواجب، الذي يُقبل على فعله بوازع داخلي، واحتساب،.. هو إنسان واجب، إنسان إنتاج، وليس إنسان حق فقط.

أما المرحلة الحضارية الثانية، التي تمر بها الأمة، هي مرحلة العقل، وضمور الإيمان، وفتور الحماس نسبياً.. مرحلة التوازن، بين العمل والأجر، بين الحق والواجب، بين الإنتاج والاستهلاك، بين الدنيا والآخرة،.. وهنا تصل الحضارة إلى قمته، وتبدأ مرحلة السقوط.

والدورة الحضارية الثالثة، أو مرحلة ما قبل السقوط النهائي، هي مرحلة غياب الإيمان، وبروز الشهوة، والغريزة، وانكسار الموازين الاجتماعية، واستباحة كل شيء وبكل الأساليب، وعندها تسقط الحضارة، وتموت الأمة، ويتم الاستبدال"⁽²⁾.

وهنا نقطة، قد تكون جديرة بالتوقف قليلاً، وهي أن السقوط الحضاري، مهما كان قاسياً، يكون بالإمكان تجاوزه واستدراكه، واستئناف عملية النهوض من جديد، إذا اقتصر السقوط على عالم الأشياء أو معالم المدنية، واستمر عالم القيم والأفكار والمميز الثقافي سليماً، لذلك استطاعت الأمة الإسلامية بما تمتلك من قيم محفوظة بحفظ الله: [إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ]⁽³⁾، استطاعت أن تعيد البناء، وتمارس عملية النهوض، على الرغم من فداحة الانكسارات وعظم النكسات، وشراسة المؤامرات والهجمات، لأنها لم تفقد قيمها وأفكارها.

العوائق الذاتية في عدم نهوض الحضارة الإسلامية

المطلب الأول: الوقوع في شرك المكائد الخارجية:

لقد لعبت المكائد الخارجية - والتي كان اليهود مصدراً أساسياً فيها - دوراً بالغ الخطورة على مدار التاريخ الإسلامي، ويمكن إرجاع مصدر هذه المكائد إلى فئات ثلاثة هم:

(1) د. احمد علي الإمام، المستقبل للإسلام، مركز البحوث والدراسات بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الدوحة - قطر (سلسلة كتاب الأمة) الكتاب السادس والأربعون، المقدمة بقلم الأستاذ عمر عبيد حسنة، بتصرف.

(2) عن مقدمة كتاب المستقبل للإسلام بقلم الأستاذ عمر عبيد حسنة، سلسلة كتاب الأمة، مطبوعات وزارة الأوقاف القطرية ص2،

بتصرف.

(3) الحجر: 9

العوائق الذاتية في عدم نهوض الحضارة الإسلامية

أولاً: اليهود الذين طُبعوا على الفساد في الأرض، وما زالوا إلى عصرنا الحاضر فلا تكاد تعصف فتنة في الأرض إلا ويتبين أن لليهود دوراً في تحريكها ودفعها.

ثانياً: المنافقون وهم الذين يستجيبون للمؤامرات الخارجية ويمهدون لها في الساحة الداخلية، فهم ظهير الأعداء في الداخل وبهم يستعينون على ضرب المجتمع الإسلامي.

ثالثاً: مبغضو العرب والمسلمين من الفرس والروم الذين دخلوا الإسلام بعد فتح بلدانهم كارهين، وبقي ولاؤهم لعقائدهم ومجدهم الغابر⁽¹⁾.

إن الكثير من المصائب التي منيت بها أمة الإسلام كانت أثراً لمخططاتهم الشيطانية، وكراهييتهم للمسلمين، وقد أدركوا أنهم لا قبل لهم بمواجهة المسلمين، فعملوا على الكيد والدس الخفي.

وقد ذكر ابن الأثير ذلك في معرض حديثه عن إثارة الفتن أيام خلافة علي رضي الله عنه فقال: " فلما ينس أعداء الإسلام من استتصاه بالقوة أخذوا في وضع الأحاديث الكاذبة، وتشكيك ضعة العقول في دينهم، بأمور قد ضبطها المحدثون، وأفسدوا الصحيح بالتأويل والطعن عليه... فكان أول من فعل ذلك أبو الخطاب محمد بن أبي زينب مولى بني أسد، وأبو شاعر ميمون بن ديسان، صاحب كتاب الميزان في نصرة الزندقة، وغيرهما، فآلقوا إلى من وثقوا به أن لكل شيء من العبادات باطلاً، وأن الله تعالى لم يوجب على أوليائه، ومن عرف الأئمة والأبواب، صلاة، ولا زكاة، ولا غير ذلك، ولا حرم عليهم شيئاً، وأباحوا لهم نكاح الأمهات والأخوات، وإنما هذه قيود للامة ساقطة عن الخاصة وكانوا يظهرون التشيع لآل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ليستروا أمرهم، ويستميلوا العامة، وتفرق أصحابهم في البلاد، وأظهروا الزهد والعبادة، يغترون الناس بذلك وهم على خلافه"⁽²⁾.

وكانت أول مؤامرة لهم يوم أن دفعوا لقتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو في صلاة الفجر غيلة، ومن ثم إشعال نار الفتنة التي انتهت بمقتل أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه فلم يرتدعوا عن قتله والمصحف في حجره يتلوه، وكأنهم تسلموا بعد هذين الحدثين مفاتيح نار الفتنة بين المسلمين والتي توصلوا من خلالها بعد ذلك إلى إثارة القلاقل والفتن على عهد علي رضي الله عنه وما نتج عن ذلك من موقعة صفين بين علي ومعاوية رضي الله عنه، وما كان من موقعة الجمل بين الفريقين من

(1) ينظر: د. نصر الدين مصباح القاضي، منهج الإسلام في مواجهة التحديات الحضارية المعاصرة، دار الفكر العربي - القاهرة - مصر 1423هـ - 2002م ص 111.

(2) ينظر: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الكامل في التاريخ، تحقيق عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان 1415هـ ط 2 ج 6 ص 448.

العوائق الذاتية في عدم نهوض الحضارة الإسلامية

أتباع علي ٢ من جهة وأتباع أم المؤمنين عائشة من جهة أخرى تمخض عنه صلح ورجوع كل منهما عن الآخر فإذا بفتنة تقع بين الفريقين وكل فريق يظن الآخر قد غدر به، فلم تزل تلك الفتنة تعصف بالمسلمين إلى أن انتهت بمقتل أمير المؤمنين علي ٢، ثم توالى تلك الفتنة حتى انتهت بموقعة كربلاء ومقتل الحسين بن علي ٢.

ولكن وقوع تلك الفتنة الأولى على عظمها لم يكن ليعيق المد الإسلامي والدور الحضاري الإسلامي المتزايد الذي لم يكن ليوافقه شيء مستمدا جذوته من إيمان لا يتزعزع ورغبة فيما عند الله من الثواب الجزيل، فلما زادت هذه الفتنة والمؤامرات مع ضعف الوازع الديني بدأت تعمل عملها في جسد الأمة.

وإن تتبع هذه المؤامرات والدسائس، التي تظهر فيها اليد اليهودية جلية منفردة حيناً، وتتحالف أو تستتر بالصليبية والوثنية والإلحاد أحياناً منذ بداية الدعوة الإسلامية على عهد الرسول ٢ حتى اليوم، والتي تهدف جميعاً إلى تشويه الإسلام وإفساده، والانحراف بأبنائه والإنسانية جميعاً، عن الحضارة الإسلامية الرحيمة الهادية.

إن الأحداث التي نزلت بنا وما زالت منذ أواخر الخلافة العثمانية إلى يومنا هذا هي عبارة عن مؤامرات يهودية استعمارية صليبية، ابتداء من معركة الدس على الإسلام واستدراج أبنائه على الخروج من تبني عقيدته وتشريعاته وهديه، وانتهاء بإثارة النعرات القومية والطائفية المتطرفة، والانقلابات الدموية الهوجاء، حتى آل الأمر إلى تجزئة بلاد العروبة والإسلام، وإقامة إسرائيل في قلب العالم الإسلامي⁽¹⁾.

ولعل أسوأ تلك المؤامرات التي امتدت نتائجها إلى يومنا هذا هي التشكيك في الدين، عبر الوسائل المختلفة عبر التيارات الوافدة وأثرها. وبالربط بينها وبين عمل تلك التيارات يتوجب على الأمة أفراداً وجماعات الحذر من الوقوع في شراكها.

المطلب الثاني: الجهل والتخلف:

إن من أعظم الآثار التي فتت في عضد الأمة الإسلامية حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من حالة الوهن الحضاري هو الجهل والتخلف، فالجاهل كما يقول العقاد رحمه الله: " أعدى لأمته

(1) ينظر: عمر بهاء الدين الأميري، الإسلام في المعترك الحضاري، دار الفتح للطباعة والنشر - بيروت - لبنان 1388هـ - 1968م ط 1 ص 27 وما بعدها

العوائق الذاتية في عدم نهوض الحضارة الإسلامية

من أعدى أعدائها ! وما نكب الإسلام كما نكب من أبنائه الجاهلين⁽¹⁾، ولو كان تأثير هذا الجهل على صاحبه فقط لكان الأمر ولكن هذا الجهل أصبح عائقاً أمام انتشار الإسلام وإنقاذ الأمم، إن واقع المسلمين الحالي يمثل حجاباً كثيفاً يطمس نور الإسلام، ويمثل من ثمّ صدّاً عن سبيل الله، وبذا يرتكب المسلمون خطيئتين: تقصيرهم في تطبيق الإسلام، وحجبهم أنواره. وليت شعري كيف يستطيع المتخلف حضارياً أن يُقنع المتحضرين – ولو مادياً – باعتناق مبدئه؟! ونحن المسلمون، لن تكون لنا الآخرة إن لم تكن لنا الدنيا؟ فمن عجز عن إعمار دنياه فهو عن إعمار آخرته أعجز. وسيسأل المسلمون في الآخرة عن كيفية مرورهم في الدنيا [وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ]. وتخلف المسلمين هو في الحقيقة تخلفهم عن فهم الإسلام، وعن الارتفاع إلى تطبيقه، وهو الذي أدى إلى تخلفهم عن ضمير العصر وعن صناعة الحياة، فهو انتقام للمبادئ التي خانها أصحابها⁽²⁾.

وإن مما لا شك فيه أن الأزمة الحضارية، التي نعاني منها اليوم ليست بسبب الفقر في القيم، التي أكملها الله، وتعهّد بحفظها في الكتاب والسنة، الأمر الذي تستلزمه خاصيتنا الخلود والخاتمية في الرسالة الإسلامية، وإنما المشكلة كل المشكلة في العجز عن التعامل مع القيم، والإنتاج الفكري، الذي يجسد العلاقة بين القيم، وبين العصر⁽³⁾.

وهذه وظيفة الفكر الذي نعاني من التأزم فيه، لذلك فإن الخلط بين الأزمة الفكرية، التي يعاني منها العقل المسلم اليوم، والتي أورثته العجز عن التعامل مع القيم، وبين التوهم بأن الأزمة في القيم نفسها، كان وراء الكثير من المغالطات، والتراجعات، التي لا تزال تكرر التخلف باسم التدين، وهو أيضاً الوتر الذي يعزف عليه مروجي التغريب في بلادنا.. لذلك يجب إزالة الخلط بين المبادئ المحفوظة، والبرامج المطلوبة، بين القيم الثابتة، والأفكار الغائبة، التي تبسط تلك القيم على الواقع المعاصر، وتقوم به⁽⁴⁾.

لقد اتهم العقل المسلم، بأن السبب في عجزه وتخلفه هو أنه محكوم دائماً بأصل يقيس عليه، أو بنص يحول بينه، وبين الطلاقة في التفكير، فهو لا يمتلك الاستقلالية، والحرية. وأن السبب في انطلاقة وإنجاز العقل الأوروبي هو اعتماده على المنهج الاستقرائي، الذي يحرر العقل من القيود المسبقة، ومما لا شك فيه أن العقل المسلم يعتمد المنهج القياسي، أو الاستنباطي، في قضايا الفقه التشريعي، والحلال والحرام، وذلك عند إعمال العقل في النص الديني الموحى به لإدراك أبعاده ومقاصده، وتحديد علته وفقاً لما جاء به الوحي. أما فيما وراء

(1) ينظر: ربحت محمد ولم أخسر المسيح : تأليف عبد المعطي الدالاتي ، دار الشهاب ، سوريا ، دمشق ، ط3/1423 هـ - 2002 م، ص106.

(2) ينظر: ربحت محمد ولم أخسر المسيح د. عبد المعطي الدالاتي مرجع سابق ص107.

(3) ينظر: عمر عبيد حسنة، حتى يتحقق الشهود الحضاري، المكتب الإسلامي - بيروت - لبنان 1412هـ - 1991م ط1، ص4.

(4) حتى يتحقق الشهود الحضاري عمر عبيد حسنة - المكتب الإسلامي ص6 بتصرف.

العوائق الذاتية في عدم نهوض الحضارة الإسلامية

الحكم الفقهي، فالإسلام يعتمد المنهج الاستقرائي في كشف السنن والقوانين التي تحكم الحياة والكون الأمر الذي يتأتى منه معرفة حركة النهوض والسقوط والتداول الحضاري⁰

والذين أغلقوا باب الاجتهاد بحجة الحماية لهذا الدين لا يخرجون من حيث النتيجة – على الرغم من حسن النية – عن اللذين فصلوا الدين عن الحياة، وعطلوا نصوصه بحجة عدم الصلاحية لهذا الزمان⁽¹⁾، حتى انتهينا إلى هذه المرحلة من الجهل والتخلف، مما يستلزم إيجاد فقه شامل لكل الحوادث والنوازل التي تعرض في حياة المسلمين والعالم اجمع، وفي المسائل التي تطرأ وتتجدد والتي لا يستقصيها فقه مدون ولا مذهب مأثور أو فتاوى مؤلفة⁽²⁾، ما يتطلب ولادة أمر وفقهاء مجتهدون على مر الأعصار وفي كل الأمصار.

ومن مظاهر الجهل الذي هو أحد أسباب التخلف الحضاري، عدم التمييز بين المبادئ والقيم الثابتة التي وردت في الكتاب والسنة، وبين متطلبات العصر من دواعي الاجتهاد، فيما لا يناقض نصا ويتماشى مع روح التشريع الإسلامي، بما يتوافق مع ظروف كل عصر وبيئة، مما يكون انسجاما دائما بين الإسلام وروح العصر.

فالأصل في الأول الاتباع لأته من الأمور التعبدية التوقيفية، أن تعبد الله كما بين وأراد، والأصل في الثاني الابتداع والاجتهاد بما يوافق العصر، ويتماشى مع روح التشريع، والإفادة من تجارب الآخرين في مجال العلوم التجريبية والاجتماعية⁽³⁾.

إن سوء تطبيق وتمثيل المسلمين لإسلامهم، ترك الباب مفتوحا أمام المناوئين للطعن في الإسلام وتنفير الناس منه، وعدم التفريق بين القيم الإسلامية كمنهج حياة وبين قصور المسلمين خاصة في أيام تقهقرهم عن بلوغ ذروة التطبيق الصحيح لإسلامهم⁽⁴⁾،

ومن قصور الفهم أن ابتلي الإسلام بالبعض من أبنائه ممن حجروا واسعه، ولم يفهموا مقاصده، فإذا بهم يعدون الأجر والثواب مقتصرًا على العلوم الشرعية – وليتهم طلبوها من وجهها الصحيح لأرشدتهم – وأن العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية وفنونها وصناعاتها من علوم الكفار، وزاد آخرون بأن الله سخرهم لخدمتنا، فكانت النتيجة أن حُرِمَ أهل الإسلام من ثمرات هذه العلوم التي نشأت في بلاد المسلمين كما أسلفنا، وصار الفقر سِمَتهم، والحاجة إلى الآخرين ديدنهم، حتى استضعفتنا أمم الأرض فصاروا يتحكمون فينا كيفما شاءوا، ونحن الذين نزل علينا قول الله تعالى: [وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ

(1) ينظر: المصدر نفسه – ص 4-6.

(2) ينظر: أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، مكتبة الإيمان – المنصورة – مصر، بدون تاريخ، ص 121

(3) ينظر: الغزو الفكري حقيقة أم وهم د. محمد عمارة، الكويت، دار البحوث العلمية، الطبعة الأولى، 1399هـ - 1979م ص 207 وما بعدها.

(4) وهو ما استغله أعداء الإسلام أسوأ استغلال للطعن في الإسلام من خلال الواقع التطبيقي للمسلمين ليس في أيام عزهم وتألقهم الحضاري وإنما من خلال واقعهم الحالي وتخلفهم الحضاري، لكي ينفروا الناس عن الإسلام وليزعزعو ثقة المسلمين بدينهم.

كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ⁽¹⁾ وقوله تعالى: [رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ] ⁽²⁾, ورحم الله الشيخ محمد الغزالي حيث يقول: " ولقد كان حريا بالمسلمين أن يفكروا في الكون وينتهزوا فرصة حياتهم على الأرض ليعرفوا عظمة رب العالمين بدراسة خواص المادة والقوانين السارية بين شتى العناصر.. إن الله لا يعرف بدراسة ذاته فهذا مستحيل, وإنما يعرف بدراسة ملكوته الضخم, واستجلاء الآيات الدالة عليه هنا وهناك, لا بأسلوب شعري هائم, ولكن بأسلوب علمي صارم." ⁽³⁾

ومن الجهل أيضا إغفال المسلمين لقانون السببية والربط بين الأسباب والمسببات مع أن الرؤية القرآنية، والتوجيهات النبوية، تؤكدان أن هناك قوانين وسنناً، قال تعالى: [قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل..] ⁽⁴⁾. هذه القوانين تحكم حركة التاريخ، والاجتماع البشري، لا تتخلف ولا تحابي أحداً، ولولا ذلك لما كان في الدعوة للسير في الأرض، والتبصر بالعواقب، والمآلات، التي انتهت إليها التجمعات البشرية، لما كان لها أي معنى أو مردود، خاصة وأنا نحن المسلمين، نخضع للقوانين نفسها، حيث لا يكفي النظر في النتائج، كما هي حالنا اليوم، بل لابد من النظر في المقدمات والأسباب التي أنتجتها، حتى يتمكن المسلمون من التحكم بها، وأخذ الحذر من الوقوع فيها، وحتى لا ينتهوا النهاية نفسها، فالمقدمات نملكها، والنتائج تملكنا، وقد تكون إحدى آفات العقل المسلم اليوم أننا ندع ما نملكه إلى ما يملكنا.

المطلب الثالث: الاستسلام لليأس

لا بأس أن ينهر الإنسان بالجديد عليه والغريب عنه، فتلك جبلة الإنسان أينما كان، فالانبهار بالحضارة الغربية المعاصرة صورة واقعة وحقيقة لا تنكر من شعوب العالم النامي، ولكن أن يسيطر الانبهار على الأمة، فترضى باقتناء الأشياء دون أن تسهم في صنعها أو تشارك في إنتاجها، بعد أن استسلمت لليأس، وفقدت الأمل في الإصلاح والحق بركب الحضارة الغربية، أمر ليس من الإسلام في شيء، فاليأس والإسلام ضدان لا يلتقيان، يقول الأمير شكيب أرسلان: " من أعظم أسباب انحطاط المسلمين في العصر الأخير فقدهم كل ثقة بأنفسهم وهو من اشد الأمراض الاجتماعية وأخبث الآفات الروحية لا يتسلط هذا الداء على إنسان إلا أودى به، ولا على أمة إلا ساقها إلى الفناء، وكيف يرجو الشفاء عليل يعتقد بحق أو بباطل أن علته قاتلة؟ وقد أجمع الأطباء في الأمراض البدنية أن القوة المعنوية هي رأس الأدوية، وأن أعظم عوامل الشفاء إرادة الشفاء فكيف يصلح المجتمع الإسلامي ومعظم أهله يعتقدون أنهم لا يصلحون لشيء ولا

(1) القصص : 77.

(2) البقرة : 201.

(3) ينظر: الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر - محمد الغزالي، دار القلم - دمشق - ط 2 - 2001 م ص 68.

(4) الروم : 30.

العوائق الذاتية في عدم نهوض الحضارة الإسلامية

يمكن أن يصلح على أيديهم شيء، وأنهم إن اجتهدوا أو قعدوا فهم لا يقدرّون أن يضارعوا الأوربيين في شيء" (1).

إن اليأس قد وقر في قلوب كثير من المسلمين حتى إنهم ليظنون أن الغربيين هم الأعلون في كل شيء، فنصر الغربيون علينا بالرعب الذي تملك نفوسنا، فصار الأقلون منهم يقومون للأكثر منا بعكس ما كان عليه الصدر الأول من سلف هذه الأمة (2)، لقد نسي المسلمون تاريخهم وأيامهم السالفة يوم لم يكن ليقف أمام همهم شيء مهما عظم، لأن عزة الإيمان كانت تحدوهم فتذل لهم الصعاب وتحنوا لهم الرقاب، لأنهم يستشعرون معية الله، ويعتقدون أنه من كان الله معه فإن معه الفئمة التي لا تغلب والناصر الذي لا يذل، والله عز وجل يقول: [وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ] (3).

إن السر المختوم في القرآن هو أن نعتبر بالماضي وأن نتعظ بالقرون الخوالي، وأن نتدبر حركة التاريخ، ونشوء الحضارات، ونتأمل الأسباب، ونربط بينها وبين النتائج. ولذلك نؤمل أن نعتمد التاريخ الصحيح للحضارة الإسلامية، لا أن نعتمد التاريخ المحرف، الذي وصلنا أغلبه عن طريق رواة الأدب، وهم صناع أساطير، ولا الذي كتب بأقلام المستشرقين التي تحرف الحقائق لتدخل المسلمين ولتثبت روح اليأس في قلوبهم (4).

ولئن سبقنا الغرب في مجال علوم المادة والتكنولوجيا، فإن ذلك ليس منتهى الحياة فهذا شق واحد من جسم الحضارة ويمتلك المسلمون وحدهم لمفاتيح الشق الثاني في الحضارة أنه الإنسان باني الحضارة والذي لولاه لما قامت حضارة، حيث أن هذا الإنسان في كل يوم يفقد خصائصه، وتدمر فيه معاني الإنسانية حيث أن قطار التحضر قد خرج عن سكة سيره، فبدل أن تكون الحضارة خادمة ومطورة لخصائص الإنسان تحول الإنسان إلى خادم، بل إلى ترس في عجلة الحضارة (5).

المطلب الرابع: حب الدنيا وكراهية الموت

(1) ينظر: لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم للأمير شكيب أرسلان، دار الكتب العلمية - بيروت، ط2، 1415هـ - 1995م ص141.

(2) المصدر نفسه ص77.

(3) يوسف: 87.

(4) ينظر: نادية محمود مصطفى، مدخل منهجي لدراسة التطور، المعهد العالمي للفكر الإسلامي - القاهرة - مصر 1417هـ - 1996م ط1 ص 67 - 72.

(5) ينظر: الإسلام ومشكلات الحضارة - سيد قطب، (ت1966م) - دار الشرق - بيروت - الطبعة السابعة - 1402هـ - 1982م. ص 108 للاستزادة.

العوائق الذاتية في عدم نهوض الحضارة الإسلامية

وهذا العنوان هو اقتباس من حديث رسول الله ﷺ وهو يصف حالة الأمة الإسلامية، يوم أن يكون أكبر هم المسلم أن يسد جوعة البطن والفرج وتهبط همته عن الجهاد بالنفس والمال لنصرة القضايا الكبرى التي تتعلق بمصير الأمة وتبوءها مكانتها بين الأمم، فيقول ﷺ (يوشك أن تداعى عليكم الأمم، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها) فقال قائل: أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: (بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن)، فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: (حب الدنيا وكراهية الموت)⁽¹⁾.

فيصف النبي ﷺ المسلمين وكأنهم تحولوا إلى شيء مأكول، والمأكول لا حيلة له ولا قوة ولا حركة فيه ولا مقاومة. وعندما يوصف المسلمون بالشيء المأكول، فهم إلى التمزيق والطحن والمضغ والازدراء صائرون، والمسلمون في هذا الوصف النبوي صم لا يسمعون، تعلن الأمم عزمها على أكلهم، وتتداعى أمم الكفر إلى ذلك وهم لا يسمعون، وقد يسمعون ولكنهم لا يعون ما يسمعون، أولسنا نرى اليوم في تصريحات كثير من دول الأعداء، مثل هذا الإعلان، الذي يتضمن عزمهم على احتلال بلادنا، بل جاوزوا الإعلان إلى التنفيذ.

والذي نحن بصدده هو تشخيص النبي ﷺ لحالة الأمة عندما سئل: أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟، فأجاب: (بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل)، ومعلوم أن السيل لا يحمل إلا ما خف وزنه وعُدِمَت قيمته، والسبب في ذلك هو مرض يصيب الأفراد والجماعات والدول انه: (الوهن) الذي فسره النبي ﷺ بـ (حب الدنيا وكراهية الموت)، فيظهر عظم هذا الداء من عظم النتائج المترتبة عليه، لقد أصبح حرص المسلمين على الحياة أشد من حرص اليهود عليها، رغم أنهم الموصوفون بذلك، قال تعالى ذاماً لهم: [وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ]⁽²⁾، فإننا نرى اليهود والصليبيين اليوم لا يهابون الموت في اعتدائهم، ليصلوا إلى غاياتهم البعيدة حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه، في الوقت الذي قعد فيه المسلمون عن نصره حَقهم ودينهم وهم المعنيون بقوله تعالى: [وَلَا تَهْنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا]⁽³⁾.

(1) رواه أبو داود ج 2 ص 514 رقم (4297).

(2) البقرة : 96.

(3) النساء : 104.

العوائق الذاتية في عدم نهوض الحضارة الإسلامية

وحتى يقطعوا الطريق أمام من تسول له نفسه من المسلمين في نشر تعاليم دينه والدفاع عن هذا الحق فإنهم روجوا أن الإسلام دين العنف والدماء وأن انتشاره كان بالسيف⁽¹⁾, حتى كونوا رأيا عاما يؤمن بهذه الفرية, وهي فرية استخدمها أعداء الإسلام مرتين بخبث وذكاء⁽²⁾:

مرة حين احتاجوا إليها ليخيفوا أتباعهم من الإسلام ويستنفروهم ضده, فصوروه لهم على أنه الدين الذي لا يسير إلا بالسيف والذي بحول أتباعه إلى قتله متوحشين, وبذلك كانت تذكي نار الحروب الصليبية على بلاد المسلمين وإلى يوم الناس هذا⁰

والمرة الثانية أنهم يستغلوا حكاية الإسلام والسيف هذه ليصرفوا جمهور المفكرين والكتاب فينا إلى اخذ مواضع الدفاع والإنكار لهذه الفرية, فتتحول الأمة من صاحبة رسالة عمادها الجهاد إلى أمة حسبتها من الغنيمة الإياب لو استطاعت أن تظفر به.

ولقد نجح أعداء الإسلام في جعل كثير من المسلمين يظنون أن الجهاد الإسلامي يحتاج إلى تبرير, فانتشر القول بأن الجهاد للدفاع فقط, واغفلوا جانب نشر الدعوة عن طريق إزالة المؤثرات التي تحول دون الناس والإسلام والتي لا تكون إلا بالجهاد. إن الله تعالى وضع للناس مبدأً فقال: [لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ]⁽³⁾, فما دام لا إكراه في الدين فكيف إذا يمتد الإسلام فينتشر في الأرض ويظهر على الدين كله, يجيب الإمام الشعراوي عن ذلك: " إن الذي يمنع منطق عدالة الإسلام هو قوى الطغيان في الأرض, فالإسلام حين ينشر مبادئه ويجد قوة من قوى الطغيان تحاول أن ترد المسلم عن قول دعوته وعن الدعوة إلى الله, فلنا أن نقف أمام هذه القوة, وإن ندكها دكا, وبعد ذلك نترك الناس أحراراً ليرأوا رأيهم بحرية وبمحض اختيار, فلا فرض لعقيدة"⁽⁴⁾, ولم يعرف عن الإسلام أنه عندما كان يفتح البلاد يحمل أهلها جميعاً على الإسلام⁰

يقول سيد قطب: فالجهاد في الإسلام يقوم على تحطيم القوى السياسية المادية التي تحول بين الناس وبينه, والتي تعبد الناس للناس وتمنعهم من العبودية لله, ثم بعد ذلك له أن يعتقد ما يشاء من غير إكراه⁽⁵⁾.

ولم يكتفوا بذلك بل صنعوا مجموعة ممن يظهرون انتسابهم إلى الإسلام, ومن ثم يتبنون إقعاد الناس عن الجهاد, وإلغاء فرضيته, والاستسلام للأعداء⁰⁽¹⁾.

(1) ينظر: محمد فتح الله الزيايدي, ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها, المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان - طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية 1392هـ - 1983م ط1 ص139 وما بعدها بيان كامل لأسباب هذه الفرية ودفع الشبهات مما لا يتسع المجال لذكره فنحيل القارئ إليه.

(2) ينظر: الغزو الفكري أهدافه ووسائله لعبد الصبور مرزوق مطبوعات وزارة الأوقاف المصرية, بلا تاريخ ص36 بتصرف. (3) البقرة: 256.

(4) ينظر: محمد متولي الشعراوي, شبهات وأباطيل خصوم الإسلام والرد عليها, جمع وإعداد وترتيب عبد القادر أحمد عطا, مكتبة التراث الإسلامي - القاهرة - مصر بدون تاريخ ص6.

(5) ينظر: معالم في الطريق - سيد قطب - الناشر مؤسسة العاتك - بيروت - لبنان - الطبعة الشرعية الثالثة عشر - 1425هـ - 2004م. ص66 بتصرف.

العوائق الذاتية في عدم نهوض الحضارة الإسلامية

ومن المؤامرة على الجهاد في بلاد المسلمين تغذية ودعم الحركات المتطرفة القائمة على مبادئ قريبة في فهمها للإسلام من تلك المبادئ التي قام عليها فهم الخوارج قديما، وهذه الحركات رغم حسن نية أصحابها أحيانا إلا أنها تفسد أكثر مما تصلح لأنها جاهدت قبل أن تتعلم مبادئ وكيفية وغايات الجهاد وأهدافه من كتاب الله وسنة المعصوم p، فكان الأمر كما قال عمر بن عبد العزيز: (.. من عمل بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح) (2)، وكثيرا ما استغل أعداء الإسلام هذه الجماعات ففسدوا فيها عملاء لهم ليلبسوا عليهم ويشوهوا صورة الجهاد، وهذا ما شهدناه في كثير من البلدان التي تعرضت لاحتلالهم 0

المطلب الخامس: التفرق والتنازع:

لقد جعل الله تعالى عز المسلمين وقوتهم في توحدهم، ونكرانهم لذاتهم والعمل من أجل أمتهم، فأمرهم بالتوحد ونهى عن تفرق الكلمة والتنازع الذي يذهب القوة والمهابة، فقال تعالى: [وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ] (3)، ولو فتشنا في تاريخ المسلمين وحاضرهم لوجدنا أن أكبر المكائد التي كانت تحاك لهم في الماضي والحاضر، كانت تعمل على تشتيت جمعهم وتفريق كلمتهم في معارك غير مكشوفة، فهم يعلمون جيدا أن المسلمين إذا ما واجهوا مجتمعين لا يصمد أمامهم شيء، والمثل الاستعماري الذي تحت لوائه احتلت أرض المسلمين في العصر الحديث، وبه سادوا في بلاد المسلمين هو: " فرّق تسد"، وقديما كان أقسى ما أعاظ أعداء الإسلام هو أن الإسلام أطفأ نار العداوة والبغضاء بين عرب المدينة، الأوس والخزرج، بعد أن سهرت أجيال من السلالة اليهودية على إلهابها بوقود من الدس والفتنة والتواطؤ. فأراد اليهودي شاس بن قيس إيقظ الفتنة بين الأوس والخزرج، لما رآهم مجتمعين بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال، يحدث نفسه أو قومه: قد اجتمع ملا بني قبيلة (4) بهذه البلاد، وما لنا إذا اجتمع أمرهم من قرار! ثم أمر فتى شابا من يهود كان معه، فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بعثت وما كان قبله من حروب بينهم، وأنشدتهم بعض ما تقاولوا فيه من أشعار. ففعل الشاب اليهودي ما أمره به شيخه، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا، حتى تواءم رجلا من الحيين وقال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جذعة، فغضب الفريقان جميعا وصاحوا: قد فعلنا، وتواعدوا على أن يلتقوا في يومهم ذاك بموضع (الحرّة) واندفعوا في دروب المدينة يتداعون إلى الحرب وهم يتصايحون: السلاح

(1) ينظر: الغزو الفكري أهدافه ووسائله د. عبد الصبور مرزوق مرجع سابق 27 - 28.

(2) شعب الإيمان للبيهقي ج 2 ص 293 رقم (1819).

(3) الأنفال : 46.

(4) كان الأنصار يكونون بذلك نسبة إلى أم لهم.

- ينظر: محمد بن أبي الفتح الألبلي الحنبلي أبو عبد الله، المطلاع على أبواب الفقه، تحقيق محمد بشير الادبلي، المكتب الإسلامي - بيروت - لبنان 1401هـ - 1981م ص 220.

السلاح. وجمت دار الهجرة وهي تسمع صيحة الحرب. وجاء المصطفى في جمع من صحابته، فأدرك القوم في (الحرّة) وقد هموا بقتال. فقال عليه الصلاة والسلام: (يا معشر المسلمين، الله ! أبدوّى الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد أن هداكم الله للإسلام وقطع عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر، وألف بين قلوبكم؟) ونفذ صوت المصطفى من مسامعهم إلى أفئدتهم وضمانهم وعقولهم، (وعرفوا أنها مكيدة عدوهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً). وبطل سم هذه الفتنة، وخاب كيد يهود⁽¹⁾.

ولقد ضرب الله سبحانه وتعالى لنا الأمثال بالأمم من قبلنا، وبين هلاكهم وضلالهم بسبب اختلافهم وتفرقهم، وكذلك حذرنا جل وعلا من الوقوع فيما وقعوا فيه، يقول الحق سبحانه وتعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَلِتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)⁽²⁾.

ولقد كانت هذه الأمة الربانية مضرب المثل في الاجتماع والاتفاق، والمودة والرحمة فيما بينها، حتى سجل لنا التاريخ صورة نقية واضحة عن المؤاخاة التي حصلت بين المهاجرين والأنصار، والأوس والخزرج وغيرهم، وغيرهم كثير. وإذا كان هذا الأمر مما يرضي المؤمنين ويفرح المتقين؛ فقد أعاظ أعداء الله وأولياء الشيطان، فتنادوا لإحداث الفرقة والاختلاف بين المسلمين، وظفروا بذلك بما لم يظفر به في غيره، ودخل عليهم من كل باب، فدخلوا على بعضهم من باب الدنيا بالمال، والجاه، والمنصب، والقبيلة والعشيرة والأرض.. والنساء، وعلى آخرين من باب التدين والعبادة والعلم.

ولقد نجحوا فيما يصبون إليه فنتج عن ذلك "التفرق والافتراق الذي صدع بنيان الأمة وزعزع كيائها، حتى صارت مطموحاً بها لزوال وحدتها وذهاب سمتها الربانية حتى ذاقوا أصناف الذلة والعذاب"⁽³⁾.

وهذا التفرق والتنازع سبب ما ينزل بالأمة الإسلامية من أنواع البلاء، الذي يقتل أبناءها ويشتت آراءها، ويعرقل مسيرتها، ويجعل كل قوم بما لديهم فرحون. ومنه تشكو خير أمة أخرجت للناس أنواع الذل والعذاب والاستكانة ما جعلها ضعيفة في قوتها هزيلة في وحدتها،

(1) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، (ت 310هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط 1 (1422هـ / 2001م)، دار هجر للطباعة ج 6 ص 55 - 56 بتصرف.

(2) آل عمران: 100 - 105.

(3) ينظر: عبد الرحمن الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، طباعة شركة العبيكان للطباعة والنشر، الرياض 1405 هـ ط 1 ج 4 ص 278.

متناقضة في آرائها مختلفة في تفكيرها، والسر وراء ذلك كله أنها لم تأخذ بأمر الله تعالى: [وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ]⁽¹⁾.

وعندما نعود إلى تاريخ المسلمين الأوائل نجد أنه سجل لهم من الفتوحات والقوة والعزة الشيء الكثير، ففتوحاتهم امتدت إلى كل مكان من هذه المعمورة، وقوتهم وهيبتهم كانت تهز قلوب الأكاسرة والقيصرة والصليبيين في كل مكان، مع أنهم لا يقارنون من حيث العدد والعدة بغيرهم؛ لكنهم كذلك أيضاً لا يقارنون بغيرهم من حيث قوة العقيدة ووحدة الصف والهدف والمبدأ فقلوبهم على قلب رجل واحد، متفقة على مبدأ ومنهج واحد.

وعندما حصل النزاع والاختلاف والافتراق بين أتباع هذه الأمة - الذين لازال التاريخ يسجل لهم ذلك - كان من نتيجته ما حكاه الله تعالى: [فتفشلوا وتذهب ريحكم]، فرتب على تنازعهم واختلافهم فشلهم وذهاب هيبتهم. فكان من عواقب التنازع والاختلاف والافتراق فشل المسلمين في تكوين وحدة فيما بينهم وإن زعموا ذلك، فسرعان ما تنهار وحدتهم مقابل القوميات التي يتبحون بها ويلكونها بالسنتهم.

الخاتمة

إن الطريق إلى الخروج من أزمتنا الحضارية ليس محالاً، حين نحزم أمرنا، ونعد عدتنا، ونجد السير في طريق النهوض والتغيير، وأن نواجه مشكلاتنا مواجهة صادقة لنعرف مواطن الانحراف فنقومها، ونكشف مواضع الخلل فنصلحها، ونحدد نقاط الضعف فنقويها. ويمكننا أن نتبين أهم معالم طريق النهوض فيما يلي:

1- أن بين أيدينا أعظم منهاج، وأكرم دين يمنحنا رؤية إستراتيجية لعوامل النهوض الحضاري، يقول الحق تبارك وتعالى: [يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ]⁽²⁾. امثل الآباء هديه فبنوا أعظم حضارة إنسانية، حفل بها التاريخ، وأشاد العدو بفضلها قبل الصديق.

2- وعندما تراجعت الأمة الإسلامية عن أداء دورها الحضاري - بعد أن دبت إليها عوامل الضعف- تكالب الأعداء لنهب ثرواتها، والنيل من مقدساتها، وتفريغ الإسلام من عوامل قوته ببث الشبهات ونشر الشهوات، عبر عوائق وضعوها في طريق النهضة الحضارية الإسلامية.

(1) الأنفال : 46.

(2) يونس : 57 - 58.

4- استطاعت الصحوة الإسلامية تعرية الكثير من شبهات المناوئين لإعاقة المد الإسلامي، والنهوض الحضاري، ولكن طريقها ما زالت تعترضه العوائق مما يستدعي نضجا اكبر في مواجهة التحدي، والعمل على البناء في وقت واحد، لاختصار الفجوة الحضارية بيننا وبين الغرب.

5- واليوم نحن بصدد القيام بدور حضاري لاحت تباشير فجره المنشود، وذلك بمعالجة الأزمة النفسية التي نعيشها، وردم الفجوة الحضارية التي تحول دون دخولنا إلى ميدان المنافسة والشهود، ومحاربة كل دواعي اليأس والقنوط والانبهار، الذي قضى على الإبداع والابتكار.

6- تعالت الأصوات في المجتمع الإسلامي أنه لا سبيل إلى اللحاق بركب الحضارة والمعاصرة إلا بالانسلاخ الكامل من موروثاتنا كلها والالتحاق السريع بركب الحضارة الغربية، ومحاكاة الإنسان الأوروبي في كل شيء حتى لباسه وعاداته. فوقعوا بتناقضات واضطرابات رهيبة، كانت سبباً في ضياع الأمة وتيهها عن معالم الرشيد.

7- وعلت في مقابل ذلك أصوات الفخر والاعتزاز بالآباء والأجداد، ودورهم التاريخي في مجال الحضارة والثقافة والعلوم، كنوع من رد الفعل الطبيعي في الالتجاء والاحتفاء بالتاريخ والتراث، لدفع غوائل التيار التغريبي الذي يستهدف تذويب هويتنا الإسلامية، وهو رد فعل طبيعي لحماية الحالة النفسية للأمة من الانكسار والذوبان.

8- لكن النقلة الحضارية لا تتحقق بالاقصرار على رواية الأمجاد الماضية، فقد ينقلب ذلك إلى مانع ومعوق حضاري بدل أن يكون دافعاً إلى تجديد العمل على ضوء هذا الماضي والإفادة منه، فتعظيم البطل لا يضيف إلى الأمة شيئاً إذا عجزت عن محاكاة البطولة، كما لا يغني استيراد النظم والأفكار من الخارج عنها شيئاً.

9- إن حصر القيم الإسلامية وفعاليتها وعطائها الحضاري بفترة تاريخية معينة يتنافى أصلاً مع خلودها، كما يتعارض مع ختم الرسالة، فلا بد إذا من النزول إلى الساحة وتقديم الحل الإسلامي، بمواكبة العصر، وقبول التحدي إبرازاً واعتزازاً بالهوية الإسلامية، على أساس صحيح من التجربة التاريخية، وتجعلنا قادرين على النزول إلى الساحة العصرية، من خلال القدرة الهاضمة للثقافات والمنجزات الحضارية للآخرين دون الذوبان أو الخوف منهم. وهذا ما حدث فعلاً في عصور النهوض، وتعطل حقيقة في حقب التخلف والتراجع.

التوصيات

العوائق الذاتية في عدم نهوض الحضارة الإسلامية

يجب أن نخرج من حالة التغني الدائم بما حقته الحضارة الإسلامية إلى استلهاً مبادئ تلك الحضارة ووضعها في إطار حضاري جديد يتلاءم مع العصر ولا يخرج عن الثوابت، يحقق لإنسان العصر إنسانيته ولا يفتقر إلى إشباع جانبه المادي، في توازن يعد من أهم وأبرز مميزات الإسلام العظيم. هذا الاستلهاً حتى لا يكون شعاراً لا بد أن نضعه موضع التطبيق في خطط عملية:

1- العمل على جعل البناء الحضاري هما ومطلباً جماهيرياً، فبدل أن نبقي مشغولين بهم البقاء والتغلب على الفقر والخوف، نوجه الهمم إلى السعي نحو البناء الحضاري، الذي بدوره إن نحن أحسنّا أسسه وبناءه على مبادئ الإسلام سيحقق لنا ما نصبو إليه وزيادة.

2- استحداث علم جديد يبحث في الواجبات الحضارية المترتبة على كل فرد من أفراد الأمة على اختلاف المراحل الدراسية وبصورة عملية، وتكثف هذه الدراسات في مرحلة النضج المتمثلة في طلبة الجامعات والمعاهد، مما يكون شريحة غير قليلة تحمل هم البناء الحضاري، تمهيداً للسير في طريق البناء التي لا بد من البدء فيها.

3- العمل على استشراف المستقبل والتخطيط للحاضر والمستقبل عبر قيام مراكز البحوث والدراسات التابعة للجامعات، وكذلك المستقلة عنها، والبدء بتنحية المشاريع والأعمال الارتجالية – العشوائية – والنهوض بدائرة الأعمال والمشاريع المخطط لها على أسس علمية متينة.

4- تشجيع البذل والإنفاق ووقف الأموال على مشاريع النهوض الحضاري، واعتباره من أولويات سبيل الله الذي تنفق فيه الأموال، وتوقف له الثروات، على غرار جائزة نوبل وغير ذلك مما يشجع العمل والإبداع الحضاري.

5- الارتقاء بالخطب ومنابر الوعظ الإسلامي إلى إثارة الوعي الحضاري بما يتوافق ومتطلبات المرحلة وروح العصر، والخروج من روح الوعظ التقليدي الذي أصبح مثاراً للسخرية – التي تزعجنا – في تخلفه عما ينبغي من طرق الجذب والشد الموجود عند الدعاية لطرق الشر، والترويج للفساد من المناهج والأخلاق.

ولنكن على بينة من أن الماضي في طريق هذه غايته، لا يمكن أن يكتب له النجاح دون علم وجهد وجهاد وصبر ومصابرة، ودون إخلاص لله وتقوى، واستعداد للتضحية. يمثل هذه العدة يمكن أن نخرج من أزمتنا بإذن الله .. ونبدأ أولى خطواتنا في درب النهوض. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

- 1- أبو الحسن الندوي, ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين, مكتبة الإيمان – المنصورة – مصر , بدون تاريخ 0
- 2- ابو الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني, الكامل في التاريخ, تحقيق عبدالله القاضي, دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان 1415هـ ط 2 0
- 3- د. احمد علي الإمام, المستقبل للإسلام, مركز البحوث والدراسات بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – الدوحة – قطر 0
- 4- د. محمد عمارة ، الغزو الفكري حقيقة ام وهم ، الكويت ، دار البحوث العلمية ، الطبعة الأولى ، 1399هـ - 1979م 0
- 5- د. محمود محمد سفر, 21 - دراسة في البناء الحضاري (محنة المسلم مع حضارة عصره (مركز البحوث والدراسات بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – الدوحة – قطر) سلسلة كتاب الأمة) الكتاب (21) الكتاب محمل عن شبكة الانترنت, ومرقم الكتروني 0
- 6- د.نصر الدين مصباح القاضي, منهج الإسلام في مواجهة التحديات الحضارية المعاصرة, دار الفكر العربي – القاهرة – مصر 1423هـ – 2002م 0
- 7- ربحت محمد ولم أخسر المسيح : تأليف عبد المعطي الدالاتي ، دار الشهاب ، سوريا ، دمشق ، ط 1423/3هـ - 2002م 0
- 8- سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي ت275هـ, سنن أبي داود, تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد, دار الفكر 0
- 9- سيد قطب,(ت1966م) الإسلام ومشكلات الحضارة- - دار الشرق- بيروت- الطبعة السابعة- 1402هـ - 1982م 0
- 10- عبد الرحمن الدوسري, صفوة الآثار والمفاهيم, طباعة شركة العبيكان للطباعة والنشر، الرياض 1405 هـ ط 1 0
- 11- عبد الصبور مرزوق، الغزو الفكري أهدافه ووسائله مطبوعات وزارة الأوقاف المصرية ، بلا تاريخ 0
- 12- عمر بهاء الدين الأميري, الإسلام في المعترك الحضاري, دار الفتح للطباعة والنشر – بيروت - لبنان 1388هـ – 1968م ط 1 0

- 13-** عمر عبيد حسنة، حتى يتحقق الشهود الحضاري، المكتب الإسلامي - بيروت - لبنان
1412هـ - 1991م ط 1 0
- 14-** لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم للأمير شكيب ارسلان ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط 2 ، 1415هـ - 1995م 0
- 15-** محمد الغزالي، الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر دار القلم - دمشق - ط 2 - 2001 م 0
- 16-** محمد بن أبي الفتح البعلبي الحنبلي أبو عبد الله، المطلع على أبواب الفقه، تحقيق محمد بشير الادبلي، المكتب الإسلامي - بيروت - لبنان 1401هـ - 1981م 0
- 17-** محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، الجامع الصحيح المختصر، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا أستاذ الحديث وعِلْمِهِ في كلية الشريعة - جامعة دمشق، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، الطبعة الثالثة ، 1407 - 1987 0
- 18-** محمد بن جرير بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، (ت 310هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط 1 (1422هـ/ 2001م)، دار هجر للطباعة 0
- 19-** محمد فتح الله الزيايدي ، ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان - طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية 1392هـ - 1983م ط 1 0
- 20-** محمد متولي الشعراوي، شبهات وأباطيل خصوم الإسلام والرد عليها، جمع وإعداد وترتيب عبد القادر احمد عطا، مكتبة التراث الإسلامي - القاهرة - مصر بدون تاريخ 0
- 21-** المستقبل للإسلام بقلم الاستاذ عمر عبيد حسنة ، سلسلة كتاب الأمة ، مطبوعات وزارة الأوقاف القطرية 0
- 22-** مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت 0
- 23-** معالم في الطريق- سيد قطب- الناشر مؤسسة العاتك- بيروت- لبنان- الطبعة الشرعية الثالثة عشر- 1425هـ - 2004م 0

24- نادية محمود مصطفى, مدخل منهجي لدراسة التطور, المعهد العالمي للفكر الإسلامي –
القاهرة – مصر 1417هـ – 1996م ط 1 0